الفلسفة والتحولات العلمية الراهنة

✍ أ. أحمد ماريف
باحث دكتوراه، جامعة عبد الحميد ابن باديس
–مستغانم– الجزائر

ملخص:

لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نهاية جميع الآمال الفلسفية وكانت العدمية حسب نيتشه هي النتيجة التي انتهت إليها الحضارة الغربية المعاصرة، وهذا ما أدى بالتالي إلى غياب الحضور الفلسفي في حياة الإنسان الغربي ولو كان هذا الغياب جزئيا أو نسبيا إلا انه أدى إلى فقدان الفلسفة بمعناها التنويري الحضاري، فأصبح الإنسان فاقد للقيمة أو بلا قيمة،وهذا ما أدى إلى ظهور بعض التيارات التي دعت إلى ضرورة الاهتمام بالمعرفة العلمية كبديل عن المعرفة الفلسفية وهذا ما شهدناه مع الوضعية المنطقية، وما تولد عن خطاب النهايات التي أعلنت نهاية الفلسفة ونهاية الثقافة بل ونهاية الإنسان، فلم تعد بهدى الفلسفة تؤدي دورها الذي طالما أدّته في الخطابات الفلسفية السابقة والأزمنة الماضية، لكن هذه الخطابات المبشرة بنهاية الفلسفة لم تكن تعبر في كثير من الأحيان سوى عن نزعة ذاتية مناهضة للفلسفة، لأن الفلسفة ستعود في ثوب جديد من خلال الكثير من القضايا التي سيطرحها العلم خصوصا وهذا ما أكدته الكثير من القضايا والمباحث التي باتت الفلسفة تطرقها وأدى إلى ظهور على سبيل المثال مبحث البيو– إتيقا ...التي سيتناول البعد العلمي في الطب والبيولوجيا ومدى تطبيقه على الإنسان.

وعليه تمحورت إشكالية هذه الورقة حول مدى إمكانية الفلسفة في العودة إلى سابق عهدها وأداء دورها التنويري الإنساني؟ وما هي الأرض التي ستقوم عليها الفلسفة في الأزمنة الراهنة؟ وما الدور الذي ممكن أن تلعبه الفلسفة في زمن العلم والتطور التقني؟

ولماذا ذلك الحضور للفلسفة الذي دائما ما يأتي متأخرا أي عند سدول الليل وليس في وضح النهار؟

Abstract:

The end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century has witnessed the end of all philosophical hopes nihilism were the result which ended the contemporary Western civilization as Nietzsche supposed, and this in turn has led to the absence of philosophical presence in the western human life, even if this absence was partially or relatively, but it led to the loss of enlightenment and civilizational sense of Philosophy, in addition to that human being became worthless, and this is what has led to the emergence of some currents which called for the need to focus on the scientific knowledge as a substitute for the philosophical knowledge and this is what we have seen with Logical Positivism, and what generated from the speech endings, which announced the end of philosophy and the end of the culture, as well as the end of the human, it's no longer guided by the philosophy which leads its role, which has long played in the previous and past philosophical discourses and times, but these speeches promising the end of philosophy were not reflected often only for a self tendency of anti-philosophy, because philosophy will return in a new attitude through a lot of issues that will present science in particular, and this was confirmed by a lot of issues and considerations which has become discussed by philosophy and led to the emergence, for example, the Study of Bioethics which will deal with the scientific dimension in medicine, biology and the extent of its application to human.

The problematic of this paper revolved about the possibility of philosophy to reestablish and the performance of its humanitarian enlightenment? What is the land that the philosophy will be in these current times? What is the possible role that philosophy can play in a time of scientific and technological development? And why this presence of philosophy, which always comes late, that is to say during overnight and not in broad daylight?

Key words: philosophy, nihilism, Bioethics, enlightenment, human being.

كل المؤشرات اليوم أضحت تنبأ على مدى عمق التحولات الجذرية، التي يمر بها عالمنا المعاصر بما فيه نحن باعتبارنا جزء منه، وهذه التحولات قد ظهرت على عدة

مستويات سوءا السياسية، الأخلاقية وخاصة الإبسيمولوجية التي تقوم عليها المعرفة... وكل هذه التحولات أصبحت تشكل تحديات كبيرة ومقلقة وأحيانا معقدة مفزعة بالنسبة إلى الإنسان بمختلف مرجعياته وهذا ما تحتم عليه الوقوف عندها بكل حكمة وتبصر بالدراسة والنقد حتى لا تفلت منه ومحاولة الإحاطة بها من جميع جوانبها.

لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نهاية جميع الآمال الفلسفية، فكانت العدمية حسب نيتشه هي النتيجة التي انتهت إليها الحضارة الغربية المعاصرة، إذ شهد القرن العشرين ازدهارا ملحوظا للتيارات المنتقدة للنزعة الفلسفية ومباحثها،فأصبح الإنسان فاقدا للقيمة أو بدون قيمة فظهرت الكثير من التيارات التي دعت وأكدت على ضرورة الاهتمام بالمعرفة العلمية كبديل عن المعرفة الفلسفية وهذا ما شهدناه مع الوضعية المنطقية، وكذا ظهور ما يعرف بخطاب النهايات حيث تعالت صيحات بعض المفكرين الذين تنبّأ بعضهم بنهاية العالم، وبعضهم قال بنهاية التاريخ، وآخرين أعلنوا نهاية الفلسفة، وآخرين أعلنوا نهاية الثقافة بل ونهاية الإنسان، "وهكذا صار واضحا في نهاية القرن العشرين أن الفلسفة التي أرادت أن تكون علما دقيقا قد فشلت في محاولتها هذه"[1] .

لكن هذه الخطابات المبشرة بنهاية الفلسفة لم تكن تعبّر في غالب الأحيان سوى عن نزعة ذاتية مناهضة للفلسفة في مقابل التوجه العلمي،لأن الفلسفة ستعود في ثوب جديد من خلال الكثير من القضايا التي سيطرحها العلم مثل تناول الفلاسفة للبعد العلمي في الطب والبيولوجيا ومدى تأثيره على الإنسان وهذا ما يعرف بالبيوإطيقا.

وعليه تمحورت إشكالية هذه الورقة حول مدى إمكانية الفلسفة في العودة إلى أداء دورها التنويري والإنساني؟ وما هي الأرض التي ستقوم عليها الفلسفة في الأزمنة الراهنة؟ وما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه في زمن العلم والتطور التقني؟ ولماذا حضور الفلسفة أصبح دائما يأتي متأخرا، أي عند سدول الليل وليس في وضح النهار؟ وهل استطاعت الفلسفة أن تلحق بركب التطورات السريعة للتقدم العلمي،بحيث أصبح وجودها ضرورة

مصاحبة لهذا التطور؟ أم أن الطفرات التي حققها التقدم المذهل في العلوم الطبيعية قد أزاح دورها الريادي؟ وما المقصود بالنهاية هل تعني المعنى الحرفي للكلمة ؟ أم هي إعلان بنهاية المشكلات التقليدية للفلسفة ؟ (ما هو حال الفلسفة اليوم عموما في خضم التطور العلمي)؟

"الفلسفة أم العلوم" تلك هي الصفة التي عرفت بها الفلسفة وهي أيضا الصفة التي جعلتها تتربع على عرش المعرفة دون منازع، لكن هذه الأم سرعان ما هجرها أبنائها وبقيت لوحدها، فأصبحت السيطرة العلمية هي السمة المميزة لعصرنا، حيث شهدت البشرية في النصف الأخير من القرن العشرين الكثير من التحولات والتطورات الكبرى، وحصيلة هذه التطورات فرضت على الفكر الإنساني المعاصر إعادة النظر في الكثير من قيمه الأخلاقية والسياسية منها أو الفكرية ومن بينها التساؤل عن ملامح الفكر الفلسفي، والتساؤل عن التقدم العلمي المعاصر وانعكاساته عن الإنسان والثقافة والقيم.

لكن الملاحظ أن الفلسفة في هذه الفترة والتي تميزت بظهور التخصص وتنوع العلوم وتطورها لم تعد تصبو إلى القول في كل شيء كما كانت في السابق خاصة مع ازدياد الحاجة إلى التخصص، هذا بالإضافة إلى تعدد المناهج العلمية وسيطرة النزعات التجريبية القائمة على البحث التجريبي المدقق والمقنن، وهذا ما جعل من دور الفلسفة بحسب الكثير ينحصر في التأريخ لمباحثها التي عرفت بها، إذ رفض الكثير من أعضاء حلقة فيينا "الفلسفة التقليدية، بما في ذلك رفض الفلسفات المثالية والميتافيزيقا لحساب العلم والتفكير العلمي"[2]، وهذا ما جعل إدموند هوسرل (1859-1938) يعلن عن ميلاد الفينومينولوجيا باعتبارها فلسفة ستعاود طرح سؤال البداية، وتحديدا بداية الفلسفة، " وهكذا فتح البحث الفينومينولوجي افاقا جديدة جعلته أحد المنابع الرئيسية للتفكير الفلسفي للحضارة الغربية في القرن العشرين، كما جاءت الظاهريات ببعض وجهات النظر النقدية -الجذرية- للفلسفات السابقة عليها وزعمت أنها فلسفة البدايات"[3] .

إلا أن قدر الفكر الفلسفي اليوم اختزل في سؤال النهايات وخطاباتها،فإذا كانت الفلسفة قد حققت في بداية القرن العشرين انتصارات عظيمة من خلال التقدم الباهر الذي عرفته الفلسفات الوضعية والعقلانية والنقدية والوجودية، إذ نجد على سبيل المثال أن الماركسية استطاعت أن تترك أثارها على الكثير من المجالات وتحولت إلى دليل لحركات سياسية واجتماعية بدلت العالم.

لكن الملاحظ اليوم أن الفيلسوف أصبح يعيش تناقضا ويشعر بتناقض حاد فهو من جهة لا يستطيع التخلي عن الإيمان بإمكانية وجود فلسفة كونية ولكنّه من جهة أخرى يشعر أن هذه القناعة لا تصمد طويلا خارج دائرة الفلاسفة وهنا طرحت الكثير من الأسئلة عن مستقبل الفلسفة. "...فاليوم وأكثر من أي وقت مضى تتعرض الفلسفة لعدة تحديات بل وهجمات شككت في قيمتها والجدوى من تعاطيها...يحدث هذا في زمن تطغى فيه العلوم التطبيقية ويلتف حولها –كالتفاف النحل على العسل– وذلك لما توفره من منافع وامتيازات تسهل أكثر أطوار الحياة والعيش داخل المجتمعات المتحضرة، إن لم نقل قد تجعلهم يلجون عالما من التقوقع والخمول ...لتلك الأسباب أصبح يعاب على الفلسفة عدم يقينيتها وموضوعيتها وكثيرا ما تنعت بأنها ضرب من ضروب الثرثرة والكلام الفارغ من أي معنى ...لتبدو بذلك عالما ميئوسا منه ..."[4].

فالتحولات العلمية والتطورات التقنية أصبحت حاضرة حضور الشمس بوهجها وهذه التحولات تشكل تحديا راهنا بالنسبة إلى الفلسفة والفكر الفلسفي، إذ أصبح الفيلسوف أمام عالم جديد يتسم بحركة متسارعة تصل إلى درجة الانقلاب على المفاهيم والقيم والأعراف والتصورات السائدة، وهنا بدأت الفلسفة تحاول التفكير من جديد في هذه الموضوعات وفي هذا العالم الجديد الذي تميز بسيطرة الروح العلمية،محاولة الفلسفة الإجابة عن بعض الأسئلة التي يطرحها العلم وبهذا أصبحت الفلسفة اليوم هي "الفرع المعرفي الذي يأتي بعد نهار المعرفة "[5]، إذ أقلعت الفلسفة اليوم عن اعتبار ذاتها أما للعلوم ولم تعد إلا خطابا محصورا بين جدران الجامعات وهذا طبعا في أحسن الأحوال،

وهذا ما أدى إلى الاعتقاد في عجزها عن التأثير في مجرى الحياة العامة والعالمية، وهذا العجز قابله تطوّر ووجود دائمين ومستمرين للعلم بمختلف تخصصاته، فأصبح كل شيء يسير ويسيّر في هذا الوجود انطلاقا من سلطة العلم الشاملة والمطلقة والكاملة.

إن ما يحدث وحدث للفلسفة هو إعلان أو تمهيد للإعلان عن نهاية الفلسفة الذي هو سؤال يتوافق وحديث النهايات في كل اتجاه: نهاية التاريخ، نهاية الإديولوجيا، نهاية المثقف،وهنا نجد الفيلسوف جيل دولوز (1925-1995) طرح سؤاله الكبير: "ما الفلسفة" الذي هدف منه على تجاوز الطرح اليوناني لمعنى الفلسفة من حيث هي محبة للحكمة أو معرفة بالمبادئ الأولى ليخبرنا أن الفلسفة هي "فن صياغة وإنشاء المفاهيم"، وهي بالتالي تقوم "على خلق المفاهيم والتعايش معها"[6]، ونجد أيضا مارتن هايدغر (1889-1976) وهو أكبر فيلسوف معاصر قد تحدث في كتابه "مادا يعني التفكير" عن المهمة المتبقاة للفكر بعد نهاية الفلسفة، فصحيح أن هايدغر قد تحدث عن نهاية الفلسفة، ولكنه تحدث أيضا عن مهمة التفكير، وهنا بالذات أصبح التفكير متجها إلى البحث والتخمين في قيمة الفلسفة أي البحث عن قيمة الفلسفة في ظل التحولات العالمية، وبالتالي فإن الأمر يتعلق بالجواب عن السؤال الذي مؤداه: هل تمت مكانة للفلسفة داخل هذه التحولات العالمية والعلمية، وهذا ما أدى إلى طرح فكرة هامة ألا وهي فكرة القيامة، فما هي أسس هذه القيامة؟ هل إن الأمر يتعلق بفناء الجسد والروح معا أم بفناء الجسد لوحده وبقاء الروح التي هي روح الفلسفة ذاتها وهذا ما أدى بدوره إلى طرح فكرة النهاية التي جعلت النهايات تتوالى وتتلاحق، إن مفهوم القيامة يشير على حديث النهاية، لكن هل هي نهاية بمعنى تجسيد فكرة اللاعودة، أو هي تجسيد لفكرة العود الأبدي؟ فمصطلح الأبوكاليبس Apocalypse يشير في أحد معانيه إلى اللحظات الأخيرة والتي ستشهد حوادث مرعبة تدفقات طوفانية للأنهار، انهيار للجبال وانشقاقات في للأرض فهو رمز للنهاية، لنهاية العالم، الأبوكاليبسApocalypse يشير إلى النهاية في كل اتجاه، أما خطاب النهاية في الفلسفة فهو يحيل على الأسس

الفلسفية التي أسست لما يمكن تسميته بالقيامة الحديثة Apocalypse moderne موت الله، موت الإنسان، نهاية الفلسفة) وقد وضع هذه الأسس فلاسفة أمثال ماركس، نيتشه، هايدغر...الخ، لكن "ليست النهاية توقفا لمسار الفلسفة ولا عجزا عن الاستمرار في المسير.فإذا كانت الفلسفة تحديدا عند هايدغر، عبارة عن ميتافيزيقا تفكر في الوجود من خلال نظرها في الموجود،فعبارة "نهاية الفلسفة تعني اكتمال الميتافيزيقا parachefment، وليس كمالها perfection "[7].

إن الملاحظ اليوم هو أن الفلسفة قد اغتربت عن المجتمعات كما اغتربت المجتمعات عنها، إذ لم يعد للفلسفة حضور واضح المعالم وتأثير في مجريات التحولات العالمية وهذا في مقابل النزعة العلمية التي أصبح ظهورها وتجليها واضح المعالم لا يخفى عن أحد، "إذ أصبح العلم وحده قادر على حل مشكلات الجوع والجهل والخرافات والعادات والتقاليد البالية...وهل هناك من يجرأ على تجاهل العلم؟فنحن نلتمس العون منه في كل أمر ... ولا وجود في المستقبل إلا للعلم، ولكل من يناصر العلم"، وهذا هو مبدأ العلم الذي يهدف إلى السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان بواسطة العلم والتقنية.

لكن يرى البعض أن هذه النزعة المبشرة بخطاب النهايات هي لا تفعل هذا أي لا تعلن عن النهاية إلا لكي تمهد لخطاب وواقع جديد والذي هو واقع العولمة، والإعلان عن نهاية الفلسفة كان " نتاجا لانهيار ما يمكن تسميته بالفلسفة الكونية"[8]. لكن وفي مقابل هذا التحول والتوجه المعلن عن نهاية الفلسفة ظهرت بعض المواقف النضالية المدافعة عن أهمية الحاجة إلى الفلسفة،رغم أن هذه المواقف الكثيرة غالبا ما تخفي ورائها هاجسا وقلقا ملحين يتعلقان بحديث النهاية.

وعليه "ما تضعه الفلسفة من لون رمادي فوق لون رمادي لا يمكن أن يحدد شباب الحياة، لكنه يفهمها فحسب. إن بومة مينيرفا لا تبدأ في الطيران إلا بعد أن يرخي الليل سدوله"[9] وبالتالي فالفلسفة تأتي دائما متأخرة مقارنة مع العلم الذي أصبح

يسبق حدود الظواهر، لكن رغم هذا الحضور المتأخر للفلسفة والمستمد من المقولة الهيغيلية: "إن بومة مينيرفا لا تبدأ في الطيران إلا بعد أن يرخي الليل سدوله" فإن "التفكير الذي يأتي في نهاية النهار هو التفكير الذي يمهد لفجر جديد، لمنطلق جديد"[10]. وبهذا الحضور المتأخر في نهاية الليل فغن الفلسفة ستعاود تجديد نفسها وإثبات تواجدها من خلال إعادة نسجها لخطاب حول الواقع والوجود، والنسج هو عملية اختراع وصناعة المفاهيم، وهنا نعود إلى الطرح الدولوزي للفلسفة من حيث هي فن إبداع وصياغة واختراع وإنشاء المفاهيم، إذ "تجد الفلسفة تحديدها الاولي في كونها الممارسة الفكرية التي في ختام النهار، تنسج نصوصا وتعيد تفكيكها كبداية عمل جديد ليوم جديد لا ينفك عن المعاودة والمراجعة، وليست هذه المهمة روتينية بل هي تكرارية بمفهوم دولوز، إذ لا يتكرر الشيء نفسه بل كل يوم هو في شأن جديد وهيئة جدية ويتمتع بفرادة متميزة"[11] وهذا باعتبار أن الثورات العلمية المختلفة ستعيد إحياء الفلسفة من جديد، "فقد أحيت نظريات التطور وفيزياء الذرة طروحات فلسفية قديمة وأخرى حديثة ووضعتها على طاولة النقاش مجددا، وهو ما جعل البعض يتحدث في نهاية القرن التاسع عشر عن **أزمة في الفلسفة وهي الأزمة التي أفضت بحسبهم إلى قرب انتهاء عصر الفلسفة، أو بتعبير آخر فإن مصير الفلسفة** هو المتحف، فلم تعد الفلسفة هي رائدة الثقافة في العصور الماضية ولم تعد هي الضامنة لثقافة عقلانية كما أرادت الأنوار الأوربية، فقد حل العلم محلها، وإذا كانت الفلسفة قد أخد تمطان الدين فإن العلم الحديث بدوره قد أزاح الفلسفة وأصبح هو النموذج الثقافي المهيمن"[12] وهنا جاء المشروع الفلسفي الذي قدمه ريتشارد رورتي كمحاولة لإحداث توازن بين العلمي والفلسفي.

وهنا نجد أيضا كارل بوبر(1902-1994) في كتابة بحثا عن عالم أفضل يتساءل في إحدى مباحث هذا الكتاب "كيف أرى الفلسفة" بقوله: "أنا لا أرى أن الفلسفة هي حل الألغاز اللغوية،ولو أن إزالة سوء الفهم قد تكون أحيانا مهمة أولى وضرورية"[13]

وهذا رد الفلاسفة اللغويين وخاصة منهم لودفينغ فيتغنغشتاين الذي حصر مهمة الفلسفة في التحليل المنطقي للغة،إن بوبر يقدم رؤيته حول العلاقة بين الفلسفة والعلم باعتبار التلاحق بينهما وليس الفصل بينهما أو إقصاء الفلسفة لصالح العلم كما تصور ذلك ودعا إليه الكثير من أنصار التفكير العلمي،حيث يقول كارل بوبر "أنال أرى أن الفلسفة لا يجب أبدا،ولا يمكن في الحق أبدا أن تُفصل عن العلوم.فالعلم الغربي كله ـ من الناحية التاريخية ـ هو نسل التأملات الفلسفية الإغريقية كلها في الكون، في نظام العالم،أما الأجداد المشتركة لكل العلماء ولكل الفلاسفة فهم هوميروس، وهيسيود، وقبل السقراطيين، كان المحور الرئيسي عندهم هو تفحص بناء الكون"[14]، فهو يرى أن الحقل الفلسفي هو دائما مصاحب للحقل العلمي، فالمهمة الرئيسية للفلسفة بحسبه هي التأمل النقدي في الكون وفي موقفنا منه، هذا من جهة وهنا تبرز مكانة بوبر كفيلسوف يؤمن بفكرة أن الفلسفة هي جزء من الحياة الإنسانية.

كما أن الجوانب الإنسانية لم تكن غائبة أو مغيبة في فكر وفلسفة كارل بوبر فقد أكد وأشار إلى ما يحدث وكان يحدث في الكثير من دول العالم من صراعات واغتصابات لحقوق البشرية، وهنا يظهر الجانب الأخلاقي لكارل بوبر،حيث تساءل بقوله عن مادا يمكن أن نفعل لما يحدث "للاجئين في فيتنام، ضحايا بول بوط في كمبوديا،ضحايا الثورة في إيران، اللاجئون في افغنستان، اللاجئون العرب في إسرائيل[15]،...ماذا يمكن أن نقوم به لمنع هذه الحوادث البشعة، اتمث ما يمكننا عمله؟"، وكانت إجابته بنعم، بمعنى أن هناك الكثير ليقوم به المثقفين لمنع هذه الاغتصابات والجرائم، وهذا ما يدل على النزعة الإنسانية والأخلاقية التي تميز بها كارل بوبر،وهو في الوقت ذاته لا ينفي تسبب المثقفين في هذا الوضع منذ آلاف السنين بحد تعبيره وهذا إما باسم عقيدة أو دين "كل هذا من صنع أيدينا،من ابتكارنا، من ابتكارنا نحن المثقفين،سنكسب الكثير لو تمكنا فقط من وضع حد لوقوف إنسان في مواجهة الأخر"[16].

إن كارل بوبر كان يسعى إلى وجود فلسفة كونية تجمع كل الأعراق والأجناس وتوحدهم وتكون ضامنة لمستقبل البشرية جميعا، بمختلف أعراقها واختلافاتها، فلسفة لا تؤمن

بالحدود ولا بالحواجز ولا بالخصوصيات،لأنها تهدف إلى البحث عن الحقيقة وتنشد المعنى،تهدف إلى إقامة اللقاء بالأخر والتواصل معه ومع مختلف الحضارات والأمم مهما اختلفت بأديانها وعقائدها ونظمها و اتجاهاتها.

فقد كان بوبر خصما كبيرا للماركسية وللشيوعية، ولكل الذين يزعمون تأييد مشروع سياسي على أخر، إنه المنظر للمجتمع المفتوح، وفكرة المجتمع المفتوح تتعلق بمستقبل مفتوح،وهذا العنوان هو عنوان إحدى مؤلفاته، الذي يتساءل فيه عن كيفية إقامة عالم جديد.

لقد توجه كارل بوبر إلى نقد الديمقراطية الغربية التي هي بحسبه "ليس حكم الشعب كما هو رائج ومفهوم خطأ، الديمقراطية هي القدرة على محاكمة الحكومات والمقدرة على منع قيام طاغية باسم شعبية أو أغلبية مهما كانت، فليست الديمقراطية حكم الشعب ولكن منع انعدام الحرية وتجنب ظهور طاغية أو ديكتاتور باسم الأغلبية أو باسم الشعبية، الديمقراطية تقتضي المقدرة على إقالة الحكومات والدفاع عن المعوزين والمعاقين وخصوصا الأطفال وحمايتهم من عنف وجرائم الكبار"[17]،"إن الديمقراطية تعطي حق المواطنة أيضا لكل الأفكار مهما تباعدت أقطابها، وتدعو البشر إلى التعايش السلمي في مجتمع مبدؤه اختلافنا يدعوا إلى البحث عن الحقيقة لا عن الصراع"[18] امن هنا يتجلى واضحا النقد الذي وجهه بوبر إلى المنظومة الغربية خاصة في فكرة الديمقراطية، فالديمقراطية هي نظام همينة على الشعب، وهو ينشد في الوقت ذاته الديمقراطية التي تمجد الإنسان وتقدسه وتمنع حدوث الجرائم والاغتصابات، فاليويتوبيا قد أدت إلى نتائج كارثية بالنسبة إلى التاريخ الإنساني، وهنا نجد فكرة التسامح مطروحة بكثرة في مختلف كتاباته.

هذه هي بعض القضايا التي يطرحها فيلسوف القرن كارل بوبر في رؤيته للواقع الغربي وتحدياته، وكل هذا يعود إلى عدم لعب الفلاسفة والمثقفين لدورهم في المجتمع وتحريكهم للعقول.

إن الإعلان عن موت الفلسفة المشار له سابقا يندرج في سياق ثقافي شامل بدء بإعلان نيتشه عن نهاية أو موت الإله،وهو إعلان بشر بقيم جديدة لإنسان جديد،وبعدها توالت النهايات ولم تنفك عن البروز،فمن موت الإنسان إلى موت اليوتوبيا إلى موت القومية مرورا بنهاية التاريخ والايدولوجيا والحداثة...وهكذا ففكرة موت الفلسفة قد تم الترويج لها في إطار شامل.

وفي عصر تميز بسيطرة الدين الجديد والذي هو العلم،وقدرة هذا الأخير على تخليص الإنسان من مختلف الشرور والآلام، فالعهد الذي بدا فيه الفيلسوف (أنسكلوبيديا: حكيما وطبيبا وعالم فلك ورياضيات وشاعر ومؤرخ...)قد انتهى مع مرحلة فتحت على التخصص، وهذا العهد انتهى في الفترة التي تطورت فيها العلوم وانفصلت تباعا عن الفلسفة، فأصبح التفكير يتبع منهج العلم الحديث،وليس تفكيرا فلسفيا مرتبطا بالبحث عن الماهية، وكل هذه العوامل والظروف طرحت مشكلة دور الفيلسوف في زمن العلم والتقنية، وحول هذا الدور للفلسفة والفيلسوف يوضح ريتشارد رورتي (1931-2007) أنه يجب ترك المسألة للمستقبل الذي سيحدد ما ستكون عليه الفلسفة لاحقا،ويتوقف هذا بطبيعة الحال على عبقرية الفلاسفة القادمين، فهم وحدهم من سيحدد مصير الفلسفة مستقبلا، فالأمل يبقى في مجيء جيل جديد من الفلاسفة.

وهكذا فإن:"الشغف بالعلوم أدى إلى عزل الفلسفة إلى درجة جعلت كل ما كان يحمل اسم الفلسفة يواجه حربا تدميرية تقودها شهوة مازوخية"[19]، وهكذا ضاع الاعتقاد بأن المستقبل سيكون أفضل وبدأ أن الفكر الفلسفي قد انتهى إلى الشك والعدمية حيث يقول رورتي:"لا أظن أننا نستطيع الآن أن نحصل نتخيل مستقبلا للكرامة الإنسانية والحرية والسلام فليس لدينا إحساس واضح بكيفية الخروج من العالم الواقعي... وبالتالي ليس لدينا فكرة واضحة عما يجب أن نعمل من أجله"[20].

لكن ورغم هذه الأزمة التي تعيشها الفلسفة إلا أنها باتت تعرف طريقها إلى العودة من جديد بثوب جديد، من خلال مفاهيم جديدة ومباحث جدية هي الأخرى، وهذا من مع ظهور الكثير من الفلاسفة والعلماء خاصة منهم البيولوجيين والأطباء الذين

تحولوا إلى فلاسفة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر أمثال الطبيب والفيلسوف الفرنسي جورج كانغيلهم (1904-1995)، وكذا تلميذه الابستيمولوجي فرانسوا داغوني (1924).

فظهرت البيو-اطيقا كمؤسسة جدية ورد فعل مباشر عن التقدم الذي أحرزه الإنسان في علم الوراثة وبيولوجيا الإنجاب وهي موضوعات لم تكن تدعي إلى التفكير من قبل. وفي هذا الصدد ظهر وبرز الفيلسوف فرانسوا داغوني كفيلسوف علم يريد من خلال فلسفته أن يعيد الاعتبار إلى النقاش الفلسفي والفلسفة،ويرى أن أهميتها اليوم ضرورية أكثر من أي وقت مضى،لأنها تهتم بالمستقبل،تهتم بما يترتب عن العلم والعلوم.

وهكذا ظهر مفهوم الأخلاق العملية أو ما اصطلح عليه بالأخلاقيات الجديدة بعد ارتباطها بالعلوم البيولوجية والطبية .فالثورة البيولوجية مكنت الإنسان من التحكم في الأمور المتعلقة ببنيته العضوية'إذ من حيث أهم المستجدات التي قدمتها الثورة البيولوجية نذكر:التحكم في الولادة،التخصيب الاصطناعي،الأم البديلة أو المرأة الحاضنة، بالإضافة إلى صنع الأطفال وإطالة العمر والموت الرحم ...كل هذه القضايا أثارت الكثير من المخاوف المتولدة عن الثورة العلمية البيولوجية، وهذا ما دفع بالإنسان إلى التساؤل عن مصيره وعن القيمة الأخلاقية لهذه التجارب: "ومن دون شك هذا مهمة من المهام التي تضطلع بها الفلسفة اليوم في إطار ما يسمى بـ: البيوأطيقا"[21].

السؤال المطروح بحدة وبكثرة هو البحث عن قيمة الفلسفة في خضم هذه التطورات العالمية والعلمية المختلفة، وبالتالي أي مكانة للفلسفة في ظل هذه التحولات، التي بات يؤسس لها العلم أو الدين الجديد

وعليه فإن التطورات العلمية التي بات يعرفها العالم المعاصر وخاصة في مطلع الألفية الثالثة بات يستجوب ويستدعي ضرورة عودة وحضور الفكر الفلسفي من جديد لتناول قضايا جدية لم يكن لها حضور وتواجد من قبل،وهذا ما يقوي من حظوظ عودة جديدة للفكر الفلسفي.

إن الفلسفة بتصورها التقليدي ومباحثها القديمة لم يعد لها مستقبل، لكن الفلسفة الراهنة أصبحت[22] تأخذ منحى آخر يحاول استيعاب وفهم التحولات الكبرى التي أصبحت تطرح نفسها بإلحاح على الفكر الإنساني. وهذا الانتقال والتحول في الفلسفة من مرحلة إلى أخرى شيء طبيعي لأن الفلسفة دائما تحاول مسايرة العصر وتطوراته الاجتماعية،العلمية،السياسية،الاقتصادية،الثقافية،...وهذا ليس إلا لكونها طريقة في التفكير لا تحاول أن تحل محل ما هو سائد، لكن تنتقده وتوجهه،وهذا هو حالها مع العلم، ونجد جيل دولوز يقول: "إذا كنتم تعتقدون إن الفلسفة لا فائدة منها فلا تمارسونها"،لقد كانت كل فلسفة ضمير عصرها ووعي حضارتها.

إن الفلسفة الراهنة عليها أن تولي وجهها شطر حكمة النظر وحكمة العمل في ذات الوقت، فالفلسفة اليوم لم تعد تحب الفكرة الشاملة والحقيقة المجردة،ولم يعد موضوعها طلب المعلوم الأسمى بل أصبحت تهتم بالجانب الوجودي للإنسان، فأصبحت تطلب العناية به،وبصحته ووجوده ككل في هذا الكوكب،فهي بالتالي أصبحت مواكبة للواقع المعاش للإنسان في مختلف تطوراته، "وبهذا من جديد التفت الفلسفة نحو طرق تفادي الألم وشرعت في البحث عن الدروب المؤدية إلى السعادة،ومن جديد عرض الفيلسوف خدماته وأسئلته على سكان المدينة بحثا عن هوية ضائعة وسط ركام الأجوبة"[23].

ونجد هابرماس يؤكد على الدور التواصلي الذي يجب أن تلعبه الفلسفة لكي تكون قادرة على مواجهة تحديات عصرها، "فلكي تستعدّ الفلسفة لمواجهة تحديات عصرها تحتاج اليوم إلى الاهتمام بالتفكير في تجربتين أساسيتين مرتبطتين بالوضع الإنساني، أولهما تجربة الوجود في العالم تأويلا لرموزه وفهما لأحداثه،وتجربة العلاقة بالآخر بغيريته واحتراما لخصوصيته"[24]، ويؤكد لنا هابرماس عن أهمية التفكير الفلسفي بالنسبة إلى الإنسان بقوله: "لا أرى كيف سيكون بوسعنا،دون فلسفة،أن نشكّل ونضمن هوية ما على أرض هشة مثل أرضية العقل"[25]. وهذه هي العودة التي يجب أن تقوم بها الفلسفة لمواجهة التحديات الراهنة، وهي قائمة على أساس فكرة التواصل الإتيقية مع الآخر،

خاصة وأننا اليوم نعيش في حالة من اللاتواصل، بالإضافة إلى النزعات المستمرة والحروب المتواصلة بين مختلف الدول.

فالفلسفة الراهنة ستهتم بموضوع الإنسان أو بالأحرى سؤال "من هو الإنسان"، وهو موضوع رئيسي تشتغل عليه الفلسفة الراهنة،فلهذا أصبحت الفلسفة هي الأداة المثلى للحوار سواء بين الأفراد أو المجتمعات.

لكن يجب الإشارة إلى أن هذا التقديس للعلم وللمعرفة العلمية عن باقي الأجناس الأخرى هو نتاج لمعاينة الإنسان للعديد من الإنجازات التي حققها العلم، لكن إذا كان هذا البعد الإيجابي للمعرفة العلمية لا غبار عليه فإن الآثار السلبية والوخيمة وأحيانا الكارثية للعلم لا تحتاج إلى تبيان، وهذا ما لم يقر به أنصار النزعة العلمية،إذ اهتموا بايجابيات العلم ونسوا سلبياته التي أصبحت تدمر الإنسان في الكثير من مناطق هذا العالم والوجود. وهذا ما ستهتم به الفلسفة لأجل توضيحه وتوجيه العلم نحو ما يحفظ الطبيعة والإنسان وكل ما هو موجود، وهذه مهمة تقع على الفلاسفة.وكل هذا سيكون من خلال فلسفة العلوم أو الابستيمولوجيا باعتبارها "الدراسة النقدية لنتائج المعرفة وامتدادها، ولنتائج العلوم ومناهجها"، وهكذا فقد وجدت الفلسفة المعاصرة في العلم والتقنية موضوعا مناسبا للتأمل الفلسفي فيهما.

وفي الأخير يمكننا القول أن الفلسفة لن تموت رغم أنها قد تأتي متأخرة وتحلق دائما في الأخير إلا أن هذا الذي يأتي متأخرا وفي أخر الليل هو دائما يمهد لفجر جديد،ليوم جديد بتعبير محمد شوقي الزين.

الهوامش:

[1]- جمال مفرج، الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات، الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2008، ص 16.

[2]- عطيات أبو السعود،الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى،مكتبة الإسكندرية،د ط، د سنة، ص 21-22.

[3]- المرجع نفسه، ص 25.

[4]- م م، حوار الفلسفة والعلم،سؤال التباث والتحول،بن عودة امينة،قيمة الطرح الفلسفي،منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2012،ص 211.

[5]- محمد شوقي الزين، كيف نقارب الثقافة من وجهة نظر ثقافية، نحو نقد العقل الثقافي، مجلة يتفكرون، عدد، ربيع 2013، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للأبحاث والدراسات، ص114.

[6]- عمر مهيبل، من النسق على الذات، قراءات في الفكر الغربي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1،2007، ص196.

[7]- موسى عبد الله،المرجع السابق، ص 27.

[8]- م م، حوار الفلسفة والعلم،سؤال التباث والتحول،موسى عبد الله،الفلسفة وخطاب النهايات،المرجع السابق،ص29.

[9]- مجلة يتفكرون،محمد شوقي الزين،المرجع السابق،ص 114.

[10]- المرجع نفسه، ص 114.

[11]- م حمد جديدي،ما بعد الفلسفة،مطارحات رورتية،الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 31.

[12]- محمد جديدي،المرجع نفسه،ص 101.

[13]-كارل بوبر،بحثا عن عالم أفضل،تر:أحمد مستجير،مهرجان القراءة للجميع،مكتبة الأسرة،د ط،1999،ص 216.

[14]- المصدر نفسه،ص 224.

[15]- كارل بوبر،المصدر السابق، ص230.

[16]- كارل بوبر،المصدر نفسه،ص 230.

[17]-كارل بوبر،خلاصة القرن،تر:الزاوي بغوره،لخضر مذبوح،المشروع القومي للترجمة،د بلد،ط1،2002،ص13.

[18]- بن معمر جميلة،معنى التاريخ عند كارل بوبر،مجلة الحوار الثقافي،عدد صيف وربيع2013،مخبر حوار الحضارات والتنور الثقافي وفلسفة السلم،مستغانم،الجزائر،ص87.

[19]- جمال مفرج، المرجع السابق،ص14.

[20]-جمال مفرج،المرجع نفسه،ص 18.

[21]- العمري حربوش،التقنيات الطبية وقيمتها الأخلاقية في فلسفة فرانسوا داغوني،مذكرة ماجستير،جامعة مناوري قسنطينة،السنة الجامعية2007-2008،ص28.

[22]- عمر مهيبل،من النسق إلى الذات،المرجع السابق،ص 191.

[23]- زهير الخويلدي،تشريح العقل الغربي،مقابسات فلسفية في النظر والعمل،ابن النديم للنشر والتوزيع،الجزائر،ط1،2013،ص12.

[24]- المرجع نفسه، ص 289.

[25]- المرجع نفسه،ص289.

قائمة المراجع:

1- جمال مفرج، الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات، الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2008.

2- عطيات أبو السعود،الحصاد الفلسفي للقرن العشرين وبحوث فلسفية أخرى،مكتبة الإسكندرية،د ط، د سنة.

3- م م، حوار الفلسفة والعلم،سؤال التباث والتحول،بن عودة امينة،قيمة الطرح الفلسفي،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.

4- عمر مهيبل، من النسق على الذات، قراءات في الفكر الغربي المعاصرالدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1،2007.

5- محمد جديدي،ما بعد الفلسفة،مطارحات رورتية،الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

6- زهير الخويلدي، تشريح العقل الغربي، مقابسات فلسفية في النظر والعمل، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.

7- كارل بوبر،بحثا عن عالم أفضل،تر:أحمد مستجير،مهرجان القراءة للجميع،مكتبة الأسرة،د ط،1999.

8- ـــــــــ،خلاصة القرن،تر:الزاوي بغوره،لخضر مذبوح،المشروع القومي للترجمة،د بلد،ط1، 2002.

قائمة المجلات:

1- محمد شوقي الزين،كيف نقارب الثقافة من وجهة نظر ثقافية،نحو نقد العقل الثقافي،مجلة يتفكرون،عدد،ربيع،2013،مؤسسة مؤمنون بلا حدود للأبحاث والدراسات.

2- بن معمر جميلة،معنى التاريخ عند كارل بوبر،مجلة الحوار الثقافي،عدد صيف وربيع2013،مخبر حوار الحضارات والتنور الثقافي وفلسفة السلم،مستغانم،الجزائر،ص87.

قائمة المذكرات:

1- العمري حربوش،التقنيات الطبية وقيمتها الأخلاقية في فلسفة فرانسوا داغوني،مذكرة ماجستير،جامعة مناوري قسنطينة،السنة الجامعية2007-2008.